http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد(1516) السنة السادسة -الاثنين (25) آيار 2009

بعقوبة التسعينيات.. ثقافة تعاند حصاراً مركّباً

سعد محمد رحيم

تسعينيات العراق: زمان ملتبس، صعب. وحياة فقدت كثيراً من رونقها ومذاقها، وأكاد أقول: ومعناها أيضاً. ونفوس لبست بالرغم منها أردية الوحشة والحيرة. وأفق ضاعت تباشيره في العتمة والدخان. فكان الخوف، وكان الجوع، وكان موسم الهرب الكبير. أما الذين بقوا فكان عليهم أن يخوضوا اللجة المضطربة بزاد قليل، وعناد روح، وأحلام مثلومة، وأمل ضئيل.

كان الحصار مركّباً.. ليس اقتصادياً فحسب.. ليس على معدات البشر فحسب.. ليس من الخارج فحسب.. حصار طال الجميع إلاّ باستثناءات. وقطعاً لم يكن الفقراء الذين هم شعب هذه البلاد من الاستثناءات.. كان الحصار هو الأحبولة الأذكى التي وافقت استراتيجيات القوى الكبرى الطامعة، وضرورات استمرار السلطة الأوليغارشية الحاكمة في آن معاً.

أعرف أن منطق اللغة السياسية، الآن، يضيق ذرعاً بكلمة «مؤامرة» لكني لا أستطيع أن استبعد عن ذهني هذا الاصطلاح الإشكالي المستهلك وأنا أتحدث عمّا حصل، في ذلك العقد القاسي، وعن سابق تصميم وتعمد، للأرواح والعقول والعمران من تشوهات وخراب. وربما كان المراد أن تكون الثقافة العراقية بتراثها وقيمها وإبداعاتها وممكناتها وتطلعاتها هي الأضحية الأعظم في عيد الظلمة ذاك.

في هذا الفضاء المعتم والخانق كان هناك من يسعى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لإشعال شمعة بدل لعن الظلام.. والبحث عن أية وسيلة تحفظ الثقافة ومن ثم الحياة من عوامل التآكل والاضمحلال.

كانت بعقوبة كأخواتها من مدن العراق مجللة برماد الحروب، وتعاني من عقابيلها. تكدح من أجل اللقمة التي غالباً ما كانت مرّة، وتحلم بيوم أجمل تحت شمس الله. في تلك الآونة حيث بدأت القيم والأخلاقيات تتفتت عند بعضهم، وتطغى الأنانية والمراءاة عند بعضهم، ويدب اليأس في نفوس معظمنا، كانت ثلة من المهووسين بالثقافة والحياة والعراق يبتكرون، من أجل الآخرين، قبل أن يكون من أجل أنفسهم، مجالهم الحر الخاص.. جزيرتهم وفردوسهم بين الأنقاض.

١ـ صباح الأنباري:

على الرغم من حمله لشهادة جامعية.. على الرغم من أنه مؤلف مسرحي وناقد، له عدد من الكتب المطبوعة، ناهيك عن مئات النصوص والمقالات والدراسات المنشورة في الصحف والمجلات.. وعلى الرغم من كونه مخرجاً مسرحياً معروفاً في الوسط الفني العراقي، إلاّ أنه بقي عاملاً أجيراً في أستوديو للتصوير لمدة تزيد على الربع قرن، يتنقل من بيت مؤجر إلى آخر مع أسرته (زوج/ وأربعة أولاد) يكدح من أجل إعالتهم وتعليمهم وتثقيفهم، وهو مملوء بالتفاؤل، مترع بكبرياء حادة، مسكون بشغف فائر بالفن والحرية والحياة، وشخصياً كنت كلما أصاب بفتور همّة وتتمكن مني الكآبة وأحس بأن الأفق مسدود كنت أذهب إليه فكان حديثه وحواره معي يعيدان إليّ ثقتي بنفسي وبالعالم وبالمستقبل.

أخبرني في أحد أيام عام ١٩٩٥ أنه بصدد مسرحة أربع قصص قصيرة لمؤلفين من ديالى (محيي الدين زنكنة، عبد الحليم المدني، صلاح زنكنة، سعد محمد رحيم) ثم تكليف أربعة مخرجين، هو من ضمنهم، لإخراجها وعرضها في يوم واحد.. بدا لي المشروع، في حينه، خيالياً، أي غير قابل للتنفيذ، إذ كيف لمجموعة من المثقفين، شبه المفلسين، تغطية تكاليف أربع مسرحيات وإن كانت من ذوات الفصل الواحد؟.

بينت له شكوكي، فقال أنهم سيخرجونها بأسلوب المسرح الفقير، أما العاملون (من ممثلين وفنيين) فهو واثق أنهم لن يتقاضوا فلساً واحداً، وهكذا كان.. كان مهرجاناً فريداً من نوعه، لم يشترك في إحيائه هو وحده، بل أشرك فيه أفراد عائلته أيضاً، وبالمناسبة فإن عقيلة الأنباري السيدة لميعة الناشئ كانت تعد طاقة كبيرة في مجال التمثيل، غير أن ظروف الحياة الضاغطة حالت دون أخذها لفرصتها التي تستحقها.

وأذكر ذات مرة في صيف عام ١٩٩٧ يوم مثلت الدور النسائي الرئيس في مسرحية محيي الدين زنكنة (يحدث في الخمس الخامس من القرن العشرين) من إخراج سالم الزيدي وقد تألقت في أدائها واستحوذت على إعجاب الجمهور.. رحت لأهنئها بعد انتهاء المسرحية فقالت: أتدري يا أبا سرمد أنني وقبل أن آتي إلى هنا وقفت أمام التنور تحت الشمس المحرقة وخبزت أكثر من أربعين رغيفاً (قرصة) من الخبز.

بعد انتهاء عرض المسرحيات الأربع في الواحدة بعد الظهر عدنا إلى بيوتنا، وكنت مع عائلة الأنباري في الحافلة المزدحمة القديمة ذاتها، وكانت أم إياء (السيدة لميعة) تتحدث بمرح عمّا يمكن أن تعدّه لوجبة الغداء.

في العقد التسعيني، كذلك، كانت هناك أنشطة مسرحية أخرى شاركت فيها أو أبدعتها تلك العائلة الرائعة. وكان صباح الأنباري في هذه الآونة يشارك في إحياء أمسيات أدبية في اتحاد الأدباء، وفي مهرجانات التصوير حتى أنتخب رئيساً لفرع جمعية التصوير العراقية في ديالى، بعد سقوط نظام صدام.

شيء آخر لابد من أن نذكره للتاريخ. فقد كان صباح الأنباري يقوم، بخطه الجميل، باستنساخ مسرحيات الكاتب الكبير محيي الدين زنكنة، يوم لم تكن هناك طباعة على الحاسبات.. كان قادراً على قراءة الخط غير الواضح بالمرة لزنكنة، وفي الغالب كان يحملها بيده، أو يبعثها، إلى جهات النشر، واستطاع بدأبه وصبره وضع أرشيف متكامل لجميع كتابات زنكنة المنشورة في الصحف والدوريات والكتب، وكذلك ما كُتب عنه، فضلاً عن جرد لمسرحياته التي مُثلت في بعقوبة أو بغداد أو المحافظات الأخرى، وحتى خارج القطر. وكان ذلك إنجازاً حفظ كثراً من نتاجات زنكنة من الضياع.

في النهاية لم يجد صباح الأنباري بداً، وفي قلبه غصة، من مغادرة العراق إلى أستراليا، بعدما ضاقت به السبل، فلم يحصل من أجل إقامة منزل له على قطعة صغيرة من أرض العراق التي كان يعشقها بصدق عال.. ولم تجر إعادته إلى وظيفته التي تركها في العهد المباد، يوم تعرّض لضغوطات سياسية وأمنية واقتصادية قاسية، وقد غادر البلد، في عام ٢٠٠٦ لمّا باتت أشباح الرعب والموت تجوب طرقات مدينته وأحيائها.

تحية للأنباري وعائلته في مغتربهم، والذي، يخيل لي، (فأنا عرفتهم هكذا)، أنهم منه يرسلون كل يوم نظرهم صوب بلادهم التي لا يعشقون سواها.

صباح الأنباري

٢ـ الدكتور فاضل التميمي:

في صيف عام ١٩٩٢ وحالما بدأت أتردد على مقر فرع اتحاد الأدباء في بعقوبة كلفني المرحوم الشاعر أديب أبو نوار، وكان يومها مسؤول النشاط الثقافي فيه، أن اختار موضوعاً لأمسية للحديث عنه، أعلمته بأن الموضوع سيكون قراءة في كتاب الناقد حاتم الصكر «البئر والعسل» وكان قد صدر لتوّه. فسألني عمّن سيقدمني.. قلت ليست لديّ فكرة، اقترح أن يكون المقدّم الدكتور فاضل التميمي. للوهلة الأولى شعرت بالإحراج إذ اعتقدت أن أستاذاً جامعياً سيأنف من تقديم أديب شاب غير معروف جيداً في الوسط الأدبي. حين أخبرت الدكتور التميمي بالأمر قال؛ هذا شرف كبير لي. ومن يومها عرفت معدن الرجل.

في نهاية سني التسعينيات، ومطلع الألفية الجديدة، صار فاضل التميمي مؤسسة وحده، متطوعاً لأداء دور المنشط للجانب الثقافي من العمل الأكاديمي لجامعة ديالى. ليقدم، من خلال ذلك، خدمات لا تُضاهى للحياة الثقافية في المحافظة.

قنع التميمي في عام ١٩٩٩ إدارة قسم اللغة العربية في كلية التربية بجامعة ديالى تدريس مسرحية (رؤيا الملك) لمحيي الدين زنكنة لطلبة الصفوف المنتهية، وخلال عام كامل انشغل الطلاب والطالبات في الغوص داخل عوالم المسرحية يناقشونها ويؤولونها ليكتبوا فيما بعد أبحاثاً عنها يتناولونها كل بطريقته وعلى وفق رؤيته وثقافته.

وفي نهاية السنة أقامت الكلية، بإشراف التميمي، مهرجاناً كبيراً للاحتفاء بالمسرحية وصاحبها، قدمت خلالها بحوث ودراسات عن المسرحية. ومن ثم اعتلى زنكنة المنصة، أمام الطلبة، ليجيب على أسئلتهم واستفساراتهم، ويتحدث لهم عن تجربته في الكتابة.

في العام التالي عمل التميمي الشيء نفسه، وهذه المرة مع رواية (سابع أيام الخلق) لعبد الخالق الركابي، يومها، بعد انتهاء المهرجان الذي كان صاخباً للاحتفاء به، جلس الركابي وقد غمرته الدهشة.. قال لي؛ أشعر بأن هذا هو أسعد يوم في حياتي.

بعد سنة نُقل التميمي إلى كلية اليرموك الجامعة، ليكون عميدها.. وفي هذا الوقت صدرت روايتي (غسق الكراكي) فعمل لها ندوة بحوث موسعة في كليته دعا للتحدث فيها مجموعة من النقاد منهم الناقد الكبير الدكتور شجاع العاني والناقد مؤيد البصام وقد شارك فيها، أيضاً، نقاد من ديالى ببحوث عن الرواية، منهم الناقد سليمان البكري والشهيد مؤيد سامي والدكتور وليد شاكر نعاس والدكتور كريم التميمي والمرحوم الدكتور سعد عبد المجيد فضلاً عن دراسة للدكتور فاضل التميمي نفسه.

كان الكتاب التالي الذي اختاره التميمي ليكون موضوع دراسة للطلبة مجموعة القاص والروائي أحمد خلف (تيمور الحزين)، هذا المشروع أثمر في النهاية كتاباً كاملاً وُقّع بأسماء مجموعة مؤلفين ونقاد عن تجربة أحمد خلف القصصية.

وبقي الدكتور فاضل التميمي واحداً من

الشهيد مؤيد سامي

انشط أعضاء اتحاد الأدباء في ديالى، وما يُحسب له أنه بادر مع أساتذة آخرين لإقامة مأدبة عشاء في ذكرى أربعينية الدكتور سعد عبد المجيد (مصري الجنسية) في مقر اتحاد الأدباء في السراي القديم ببعقوبة وقراءة سورة الفاتحة على روحه بعد أن توفي في حادث سير بين بغداد وبعقوبة، في عام ٢٠٠٤.

في زيارة خاصة لمنزل محيي الدين زنكنة وبينما كان يقلّب الكتب والأوراق في مكتبة زنكنة البيتية عثر الدكتور فاضل التميمي على دفتر قديم يحوي قصصاً لزنكنة كتبها في بواكير شبابه حين كان في عمر السادسة عشرة والسابعة عشرة.. أخذها التميمي وكتب عنها دراسة قصيرة ليصدرها في كتاب بعنوان (بواكير محيي الدين زنكنة القصصية)، وهكذا استلّ التميمي من بين الأوراق المهملة أعمالاً لزنكنة كانت في سبيلها إلى النسيان الأكيد، ليعرضها للقراء.

اضطر الدكتور الناقد فاضل التميمي إلى مغادرة بعقوبة، وعقله وروحه معلّقان بها، في عام ٢٠٠٦ إلى الكوت خلال عمليات التهجير المأساوية والمخجلة التي لم يعرف لها تاريخ العراق مثيلاً، وهو اليوم يستعد للعودة، ليشارك، مع زملائه ورفاقه، في إحياء وجه بعقوبة الثقافي والحضاري.

٣ـ الشهيد مؤيد سامي

كانت مكتبته، التي أقامها في عام ١٩٩٦ في دكان صغير، بطرف من سوق بعقوبة، مؤسسة ثقافية قائمة بحد ذاتها.. وفي غضون أشهر قليلة نجح في جذب أنظار عشرات ومئات القراء، وحتى أولئك الذين أصابهم الحصار في الصميم، وكانوا من عشاق الكتاب في ما مضى، عادوا بفضل مؤيد سامي إلى عادتهم القديمة/ القراءة.. أما طلبة الجامعة فقد وجدوا في المكتبة وصاحبها منجماً للمصادر والمعلومات.

وكان أساتذتهم، لاسيما في مجالات العلوم الإنسانية والآداب، يوجهونهم نحو المكتبة ليساعدهم مؤيد لا في توفير المراجع والمصادر اللازمة فحسب وإنما في إبداء الملاحظات في كيفية كتابة البحوث، في ضوء المناهج العلمية الحديثة، ومناقشتها.

وفي الحقيقة، كان مؤيد موسوعة ثرية في مجالات تخصصية مختلفة بدءاً من النقد الأدبي وحتى القانون والعلوم السياسية والاقتصاد وعلم الاجتماع فضلاً عن علوم الفقه والتفسير والحديث.. كان على اطلاع ممتاز على عالم الفكر والمعرفة، من ماركس وهيجل وحتى سيد قطب وخالد محمد خالد.. مروراً بأعلام الفكر الإنساني والعربي.

كان بمقدوره أن يعطيك خلاصة عن فكر ميشيل فوكو وإدوارد سعيد ونصر حامد أبو زيد، مثلما يعطيك خلاصة عن فكر الجاحظ وابن تيمية. وكذلك عن الشعر الصوفي والرواية الحديثة والاقتصاد السياسي وتاريخ العراق القديم والحديث والفلسفة الإغريقية ومدارس الفن المعاصر والترجمة (كان يتقن الإنجليزية) وعلي الوردي وطه حسين والشريف الرضي.. عن كتب السحر والتنجيم مثلما عن كتاب نهج البلاغة والمنقذ من الضلال وألف ليلة وليلة، الخ، الخ.. وهذا الخليط من مرجعيات الثقافة أمدّه بطاقة فكرية، لم يستثمرها لنفسه بقدر ما استثمرها من أجل الآخرين.

قدّمت بالاشتراك معه، في اتحاد أدباء ديالى، عدة أمسيات تحدثنا فيها معاً عن موضوعات مختلفة وعرضنا بإسهاب قراءات في كتب لم تكن قد وصلت، في حينه، لأكثر المثقفين، أذكر منها (صور المثقف) لإدوارد سعيد و(شاعرية أحلام اليقظة) لجاستون باشلار و(نقد الحداثة) لآلان تورين، و(نهاية التاريخ) لفوكوياما إلى جانب طرحنا لقضايا فكرية تخص الحداثة والعولمة والاستشراق ونظريات الثقافة، الخ.

وبالقياس إلى موهبته في الكتابة الأدبية والفكرية، ولاسيما الأخيرة منها لم يكتب مؤيد سامي كثيراً، ونشر مما كتب أقلّه، كان يقول لي كلما ألححت عليه كي يكتب، وهو نصف جاد ونصف مازح؛ «النشاط الثقافي الحقيقي هو القراءة»، كانت متعته في القراءة والكلام عمّا قرأ والتعقيب على الأفكار الواردة في الكتب.

هو أول من أدخل كتب الاستنساخ إلى ديالى وروّج لها، وجاء بجهاز استنساخ إلى مكتبته فاستنسخ عشرات الكتب بمئات النسخ حتى أرهق جهازه، وعطّله مراراً، وكانت أغلب تلك الكتب من الممنوعات بمعايير النظام السياسي القائم. وكان يأتي إلى مكتبته لأسباب شتى مثقفون وأدباء وطلبة وأساتذة جامعيون وباحثون ورجال دين.. شيوعيون سابقون ونهلستيون وملحدون وشكاكون ومتدينون ومتعصبون دينيون (سنة وشيعة) ومسيحيون وبعثيون ورجال أمن.. منهم العقلاء ومنهم من هم أنصاف مجانين ومعقّدون نفسياً وفضوليون. ومنهم الحالمون بالمجد والمتفيقهون والمتبجحون والأدعياء، ومنهم موهوبون أو أشباه موهوبين، ومنهم الأميون وأشباه الأميين الذين يسألون عن جدوى الكتاب في الزمن الأغبر.. الخ.. خليط عجيب يشكل جزءاً مهماً من الفسيفساء الديمغرافي والثقافي والسياسي للمدينة، وكان مؤيد يستوعبهم جميعاً، حتى ظنوا جميعاً أنه صديقهم المقرّب.

وقد يستغرب القارئ غير العراقي أو المنفي والمهجّر أن مؤيد، في تلك الحقبة السريالية، راح يُعير كتباً ممنوعة تتحدث بالضد من النظام حتى لبعض من رجال الأمن والحزب والسلطة، بعد أن أثّر فيهم أو أطمأن لهم.. يقرؤونها خفية ويعيدونها شاكرين، وقد أستدعي مؤيد مرتين إلى دائرة الأمن، مرة لأن مكتبته غير مرخّصة، ومرة لأن مفتشاً عثر على كراسة عتيقة عن حياة فهد، ولحسن الحظ، كان في كومة من الكتب على الأرض، ادّعى مؤيد أنه بصدد بيع الكومة كلها لباعة (الحب شمس).

وبقيت أخاف على مؤيد الذي لم يكن محترساً جداً كما يتطلب الأمر، وكنت أتوجس خيفة كلما دلف إلى المكتبة رجل غريب. أو كلما مررت بمكتبته ووجدتها مغلقة.

في عام ٢٠٠٣ وبعد سقوط نظام صدام واحتلال العراق اضطر مؤيد إلى إغلاق باب مكتبته، بعدما عجز عن توفير إيجار محله وقوت عائلته.. كانت تلك سنة انعطاف صعبة، انصرف الناس فيها إلى أشياء غير القراءة واستعارة الكتب أو اقتنائها.. وأخفق بالرغم من محاولاته في إيجاد وظيفة له أو لزوجته على الرغم من حملهما لشهادة جامعية، فاشتغل في الصحافة، ومن ثم أصبح عضواً في مجلس المحافظة حتى طالته رصاصات الغدر في يوم كئيب من شهر كانون الثاني ٢٠٠٥. يومها تذكرت مقولة لينين في رثاء أنجلس: «أي مشعل للفكر قد انطفأ؟.. أي قلب توقف عن الخفقان؟».

ذلك جانب مختزل من صورة النزوع الثقافي لأبناء بعقوبة في تسعينيات القرن الماضي ومطلع الألفية الثالثة.. قصة يجب أن تُروى تفصيلاً من أجل التاريخ والجيل الآتي.

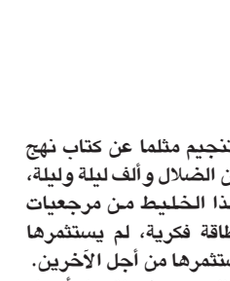

البرج العاجي

أدور سعيد: الحوار الأخير

فوزي كريم

حين توفي المفكرُ الأمريكي الفلسطيني أدورد سعيد في ٢٤ أيلول/٢٠٠٣، بعد معاناة مديدة من سرطان الدم، كان قد ترك إنجازين أحدهما لم يكتمل. الأولُ حوارٌ طويل مع تشارلس غلاس، في فيلم يتجاوز الساعات الثلاث، صدر على DVD تحت عنوان «أدورد سعيد: الحوار الأخير». والثاني كتاب «عن الأسلوب المتأخر» On Late Style، الذي لم يُكمله.

استعرتُ الفيلمَ من المكتبة المحلية العامة، واقتنيتُ الكتاب حين صدوره عن دار Bloomsbury، عام ٢٠٠٦، كان الوقت الطويل، الذي صرفته مع حديثه، قصيراً لفيض المتعة، برغم الاستعدادات التي أحاولُها بين الحين والحين، مأخوذاً بالغنى الفكري المحلّق مع الأنفاس المتقطعة والتعب الظاهر، وبالطلاقة التعبيرية التي تصل مراميها بيسر.

كنتُ، وأنا أشاهد وأصغي، أستعيد الأفكار التي انطوى عليها كتابه بشأن «الأسلوب المتأخر». لأن أسلوب الطرح هنا ينطوي على الخصائص ذاتها التي حدّدها في كتابه حول «الأسلوب المتأخر» هذا، والتي درسها لدى كل من بيتهوفن، شتراوس، موتْسارت، جان جينيه، كفافي، إنه لا يقصد بـ «الأسلوب المتأخر» المفهوم المعهود عند المفكر أو الفنان المسن، مرحلة المعارف، والحكمة التي تَنتج عن الخبرة، والأسى الذي يتولد عن الحكمة، والتمكّن من الحرفة، والتلميح إلى ما وراء القدرة على الفهم، إن سعيد يَعني، على العكس، تمثّلَ كل ما هو متصلّب، صعب، ومتعارض لا حل له.

رأيتُه في الحوار داخل معترك الأزمات المستعصية التي يخوض الصراعَ معها دون أمل بحل: فلسطين، العرب، اللغةَ، الموسيقى. رأيتُه مثل أبطال كتابه: بيتهوفن الذي يحتدمُ داخلَ الصدوع والتشظيات المستعصية في أعماله الأخيرة، والتي فصلته عن موسيقى حاضره، رغم قدرته الأسلوبية الفائقة على التحكم.

ريتشارد شتراوس الذي هجر مناخ ألمانيا الجحيمي ولجأ إلى موسيقى القرن الثامن عشر.

الشاعر كفافي الذي أبى إلا التعامل مع مرحلة الحضارة اليونانية. العازف غلين غولد الذي امتنع عن العزف أمام الجمهور، وفضل العزف داخل ستوديو التسجيل.

إنهم يشبهون أوشنباخ بطل توماس مان، في روايته القصيرة «موت في البندقية». كائناتُ مَغيب، هجرتْ عالَمها وعانقت منفاهاً، على حدّ قول أدورد نفسه، ولعل حالةَ المنفى هذه تُشكّل محوراً مركزيا في وجوده كله، كما شكّلت محوراً في حواره الطويل.

ولكن هناك أكثر من محور في حديث أدورد سعيد. محور فلسطين هو الأبرز، حيث يستغرقُ أكثر من نصف الحوار: ولادته، ثم هجرة العائلة إلى أمريكا، الحياة في القاهرة، الدراسة في أمريكا، الانشغال الفعلي داخل حركة فتح، الخلاف مع عرفات، منع كتبه في فلسطين لا في إسرائيل، رفضه لأوسلو، ثم مرضه، وانسحابه من المعترك. ويليه محورُ أطروحته المثيرة بشأن الاستشراق، وكيف أن سوء الفهم لم يحدث بين الكثير من الغربيين فقط، بل حدث بين الكثير من الشرقيين، الإسلاميين والمثقفين العرب، أيضاً.

حين تُرجم الكتابُ إلى العربية كان الاحتفاءُ به مثيراً. ولكنه احتفاءُ الكائنات التي تنطوي على جاهزية العداء للغرب، وجاهزية الريبة الواهمة من الأصابع الخفية، وجاهزية الوهم بأن العربَ والإسلام مُستهدفين في كل فعل غربي، حتى لو كان هذا الفعل في حقل العلم، وهاهو كاتب يخرج من رحم الثقافة الغربية، كما يرون، ليفضح مؤامرة الاستشراق!!

أدورد سعيد يتحدث عن انزعاجه من سوء الطوية هذه. فهو لم يتعرض بالشك مطلقاً لمسعى كثير من المستشرقين، ولم يربط مطلقاً بين السعي للمعرفة Knowledge في هذا الاستشراق، وبين السعي للقوة والهيمنة Power.

والغريب أن الحوار لم ينصرف للموسيقى، التي تشكل محوراً أساساً في حياة أدورد الروحية والفكرية. مع أن كتابه الأخير «عن الأسلوب المتأخر» في جملته كتاب موسيقي. ونشاطه في حياته ونتاجه لا يبتعد كثيراً عن الحقل الموسيقي. فهو عازف بيانو ممتاز، ولقد اكتشف سحر هذا الحقل منذ السادسة من عمره، قبل أن يكتشف سحر القراءة والكتابة!

أدورد سعيد يتحدث عن انزعاجه من سوء الطوية هذه. فهو لم يتعرض بالشك مطلقاً لمسعى كثير من المستشرقين، ولم يربط مطلقاً بين السعي للمعرفة Knowledge في هذا الاستشراق، وبين السعي للقوة والهيمنة Power. والغريب أن الحوار لم ينصرف للموسيقى، التي تشكل محوراً أساساً في حياة أدورد الروحية والفكرية. مع أن كتابه الأخير «عن الأسلوب المتأخر» في جملته كتاب موسيقي. ونشاطه في حياته ونتاجه لا يبتعد كثيراً عن الحقل الموسيقي. فهو عازف بيانو ممتاز، ولقد اكتشف سحر هذا الحقل منذ السادسة من عمره، قبل أن يكتشف سحر القراءة والكتابة!

"المدى" في مهرجان "كان" السينمائي الدولي:

إنجاز كردي يُدخل العراق في السجل التاريخي لجوائز (كان)

عرفان رشيد
كان

بانتظار إعلان الجوائز الكبرى وقرارات لجنة التحكيم الدولية برئاسة النجمة الفرنسية إيزابيل هوبير، أدخل فيلم (Sirat La Gal Ba- همس مع الريح) للمخرج الكردي شاهرام عليدي (المولود في كردستان إيران) العراق في سجل جوائز الأفلام التي حازت على جائزة في هذا المهرجان الذي يُعدّ أهم مهرجان سينمائي في العالم، ويأتي، على صعيد الزخم الإعلامي، بالمرتبة الثانية بعد الأولمبياد.

عُرض الفيلم ضمن برنامج (أسبوع النقّاد) وفاز بثلاث من الجوائز الفرعية، من بينها جائزة (جمعية هواة السينما الشباب).

وبصرف النظر عن نوع وحجم الجائزة التي فاز بها الفيلم فإن مجرد التواجد في أحد برامج (مهرجان كان السينمائي الدولي) باسم العراق وبإنتاج كردستاني عراقي، يعدّ بحد ذاته جائزة مهمة.

أنتجت الفيلم وزارة الثقافة في حكومة إقليم كردستان وصُوّر بأكمله في كردستان العراق واستخدم فيه المخرج بضعة ممثلين محترفين إلى جانب عدد كبير من الأهالي الذين وضعوا أنفسهم في تحت تصرّف المخرج وروا من خلال هذا التواجد فصولاً من التراجيديا التي تعرّض إليها الشعب الكردي في العراق تحت نير النظام الديكتاتوري السابق، وبالذات ما قاساه هذا الشعب خلال (حرب الأنفال)، التي ما تزال ضحاياها وأهاليهم يترقبّون إحقاق حقوقهم والحكم القضائي بحق الأيدي التي تلوّثت بدماء الضحايا وتسبّبت في تشريد الآلاف من سكان كردستان.

يروي الفيلم حكاية رحلة غريبة يقوم بها (مام بالدار)، ساعي البريد الكهل والمتميّز، في عموم الأرض الكردستانية (العراقية) لتسليم رسائل بعث بها الناس (والمقاتلون) إلى ذويهم.

(مام بالدار) لا يحمل الرسائل المكتوبة بل الرسائل الصوتية التي يسجّلها المقاتلون على أشرطة تحوي موسيقى كردية وأناشيد حماسية لمديح صدّام، يُدخلها (مام بالدار) في جهاز التسجيل العتيق الذي يحمله معه للتمويه على قادة العسكر عندما تتقاطع سيارته العتيقة مع العربات المحمّلة بالجنود القادمين لاعتقال الشبيبة الكردية.رحلة العمل تلك تتحول إلى سفر للمأساة الكردية إذ إن عليه أن يصرخ متأوهاً في كل واد من وديان كردستان وهو يتجول باكياً بين بقايا القرى و أشلاء أزياء عرس لم يكتمل بسبب هجوم قطعات الجيش العراقي السابق.إنه يرفع صرخته:

«ويلاه! أين انتهى الناس الذين عاشوا هنا؟!» ليدلّل على عمق مأساة اقتلاع بشر عاشوا في مكان ما لقرون قتلتهم فيه أيد أجيرة وأجبروا على الهجرة القسرية إلى لا مكان.

يقول المخرج عليدي: «بينما كنت أكتب نص الفيلم لم أستطع أن أزيل عن ذهني صورتين إحداهما

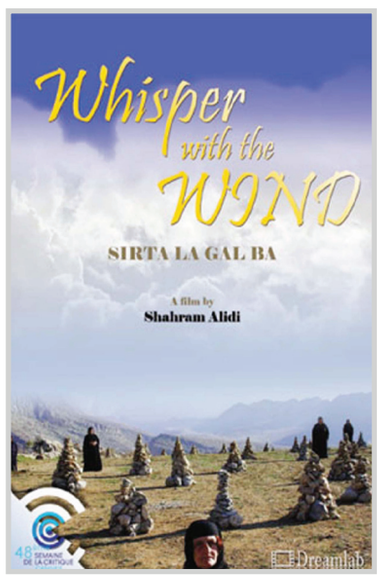

للناس الذين لم يعودوا موجودين في الحياة معنا والأمر الثاني هو البون الشاسع ما بين رؤيتنا كأناس بالغين ورؤية الأطفال الذين عاشوا تلك المأسي وابتُلوا بها.ومنذ خمس سنوات، حيث ولدت الفكرة وابتدأت الكتابة، فكّرت على الدوام بتلك الحيوات الإنسانية التي واجهت الظلم الأكبر على الإطلاق، وبالذات حيوات الأطفال الذين قتلوا وشُرّدوا من ديارهم.

وعندما تقاطع فريق التصوير مع المقابر الجماعية التي كوّم فيها صدام وأعوانه أجساد ضحاياهم، قفزت إلى ذهني مشاهد أحلام الطفولة التي دُفنت في رمال الصحارى.لو أن حبّات رمل الصحراء استطاعت النطق لأصبحت شاهداً ضد أولئك الذين وأدوا أحلام الطفولة..).

وبرغم الضعف في العنصر الروائي في الفيلم

واعتماد المخرج على تشكيل صورة مركّبة الأجزاء فإن إنجاز هذا الفيلم يشكّل مرحلة مهمة تُضاف إلى تجارب المخرجين الأكراد (العراقيين والإيرانيين) مثل شوكت أمين كورك وهونير سليم وبهمن قبادي وشاهرام عليدي نفسه وآخرين، والذين عملوا في كردستان العراق ويحاولون إعادة قراءة التاريخ الكردي الحديث، بالذات ما عانه الأكراد العراقيون إبان حكم البعث (١٩٦٨- ٢٠٠٣).

وما يمتاز به عمل عليدي الأخير هو تركيزه على جغرافية المكان الكردستاني ويحوّله، من خلال خبرته التشكيلية والوثائقية، إلى بطل حقيقي في الفيلم.

إلى جانب الجوائز التي حصل عليها شاهرام عليدي وفيلمه (همس مع الريح) تناصف المخرج الكردي (الإيراني) بهمن قبادي مع المخرجة الفرنسية ميا هانسون لوف جائزة برنامج (نظرة ما) عن فيلمه المتميّز والمهم (سياسياً واجتماعياً) (لا أحد يعرف شيئاً عن القطة الفارسية) جائزة (لجنة التحكيم الخاصة).فيما مُنحت الجائزة الكبرى لهذا البرنامج إلى الشريط اليوناني الممتع (أنياب الكلب) للمخرج يورغوس لانثيموس.

منح هذه الجائزة إلى شريط قبادي يعيد إلى الواجهة التساؤل الذي طرحناه في بداية تغطياتنا لمجريات مهرجان كان وهو:

لماذا لم يُدرج المدير الفني للمهرجان فيلم قبادي والفيلمين الآخرين الفائزين بجوائز هذا البرنامج ضمن برنامج المسابقة الرسمية الذي تضمّن أعمالاً ما كانت تستحق التواجد ضمن المسابقة.

وهذه هي المرة الثانية التي يفوز بها بهمن قبادي بجائزة مهمة في مهرجان (كان) بعد فوزه بـ (جائزة لجنة التحكيم الخاصة) في عام ٢٠٠٠ عن فيلمه (زمن الجياد الثملة).

فوز قبادي بالجائزة الجديدة إضافة للسينما الكردية في العراق أيضاً لمساهمات هذا المخرج المبدع في تفعيل النشاط السينمائي في كردستان العراق.